طور المشهد الشعري المغربي رؤيته الفنية والشكلية، وذلك بمروره بعدة مراحل متعددة منها: التقليدية والرومانسية والشعر المعاصر. وأكسب هذا التعدد في بنيات الشعر المغربي الحديث، سمة التنوع في الأنماط والأشكال والاتجاهات الفكرية، بفعل الاحتكاك بالشعر العربي الحديث بالمشرق، والتأثر بتيارات التجديد الشعري الغربي، ما دفع الشعراء المغاربة إلى تطوير نصوصهم شكلاً ومضموناً، باحثين عن أفق مغايرة للتخلص من ضوابط العروض، والقافية، والصور البلاغية، ووحدة الروي، والدعوة إلى التحرر، لبناء شكل جديد يستجيب لمتطلبات التحولات الثقافية والسياسية، التي عرفها العالم العربي والغربي.

سنتطرق في هذه الدراسة بالحديث عن الشعر المغربي التقليدي. قراءة تتغيّا الرحيلَ نحو السؤال، الذي لا يبحث عن الإجابة بقدر ما يبحث عن أفق للبحث، منطلقُها الوحيد هو الشعر المغربي الحديث. فجاءت (هذه الدراسة) كسفر من المجهول إلى المعلوم، إذ لا وجود لزمن خارج المعرفة، ولا وجود لمعرفة لا تنتج السؤال. وللسؤال أحقيته في هذه الدراسة. ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال بناء مشهد ثقافي مغربي حديث دون العودة إلى الأصول الأولى للقصيدة الحديثة، واستحضارِ المنظور التاريخي والزمني، لبناء صورة واضحة المعالم للشعر المغربي الحديث.

إذن ما وضعية البداية في الشعر المغربي الحديث؟ وما حدود التحديث في القصيدة المغربية الحديثة؟ وما علاقة هذا الشعر بالحركة التقليدية المشرقية؟

تعد التقليدية العتبة الأولى للشعر المغربي الحديث، لما أتت به من أفكار جديدة شكلت بداية الحداثة الشعرية في المغرب، ومنطلقاً لتغيير فكري سعى إلى تغيير مجرى الثقافة المغربية من ثقافة فقهية إلى ثقافة منفتحة على الآخر، مستفيدة من تطوراته وأحداثه. وقد تميزت هذه القصائد بالمحافظة على أبرز مميزات بناء القصيدة الجاهلية.

يعرف محمد بنيس التقليدية بأنها «أول برنامج شعري للحداثة الشعرية العربية، في العصر الحديث. فيه وبه تم بناء نص يرى إلى الممكن في الكائن، وإلى المستقبل في الماضي، حيث التقدم الشعري (وغير الشعري) يقضي بأسراره من غير قلق أو تصدع. ولكن العودة إلى الماضي لم تقدر على التخلص من أثر الذات الكاتبة، في استيقاظ إحساسها بعدم التوافق بين حاضريها وماضيها أساساً، مهما كان شحوب هذا الأثر». إنها حركة تحديثية، ذات نزوع واضح نحو إنجاز قصيدة لها مبادئ نظرية، لخصها محمد بنيس في التقدم، والنبوءة، والحقيقة، والخيال. هذه المبادئ هي التي أعطت القصيدة التقليدية نسقاً تستقل به وتنفصل عن القصيدة القديمة.

لم يكن للتقليدية، إذن، سلالة شعرية حديثة. وهذا يفيد أن السلالة هي الماضي الواحد والموحد. فالشاعر التقليدي لم يدرك انفصاله عن الأقدمين، ولم يستطع أن يتخيل زمناً شعرياً مبتذلاً عن الأزمنة الماضية. في الماضي وحده، توجد الحقيقة الشعرية. هناك في الزمن الدائري، العائد إلى الوراء، كمستقبل شعري، يتخيل الشاعر التقليدي وجوده بين السابقين، لا كسابقين، ولكن كشعراء نوابغ، وهو أحد النوابغ في السلسلة الذهبية.

انطلقت ممارسات الشعر الحديث في المغرب برغبة مسايرة الواقع التاريخي، والمجتمعي لأحداث النهضة، والبحث عن تصور جديد للشعر، يتناسب والتحديث الذي بدأ الشعراء يتطلعون إليه، مما أطر لظهور القصيدة المغربية المنفتحة على المركز الشعري. ففي الوقت التي ظهرت فيه القصيدة المغربية التقليدية بالمغرب في الثلاثينيات، كانت وفاة حافظ وشوقي، إيذاناً بنهاية القصيدة التقليدية في المشرق وتونس، مما يفسر الوضعية المتأخرة والمنغلقة التي كانت تعيشها الثقافة المغربية آنذاك. وقف الشاعر المغربي في ظلها وقفة المصدوم، مما جعله يفكر في إعادة بناء الشعر المغربي، من حيث البنية والدلالة، معلناً عن بداية مغايرة ترفض التراجع والانغلاق، داعياً إلى الإصلاح والانفتاح في اتجاهات القراءة والأسئلة، التي تعمل على رجم المسلمات في قراءتنا للشعر

المغربي الحديث. فبالرغم من التأخر التاريخي، الذي عرفته القصيدة المغربية الحديثة فإنها لم تكن لتوجد إلا بشروط حديثة ولكنها ضعيفة جداً. ومع ذلك عبرت عن زمن التحولات في مجتمع يبحث عن هويته الضائعة بين الجهل والاستعمار.

لقد كان كتاب المتنخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية لعبد الرحمن السائح، أول كتاب تناول الشعر المغربي، حيث صدر سنة 1920، وقسمه مؤلفه إلى قسمين: قسم تناول فيه الشعراء المغاربة، وقسم ثان، أفرده للشعراء الأندلسيين، فهو يعد بمثابة إرهاص أولي لتاريخ الأدب في المغرب الأقصى، إلا أنه يظل ذا غاية تربوية، فهو كتاب موجه بالأساس إلى التلاميذ والأساتذة.

وفي سنة 1929، صدر كتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى للكاتب والناقد المغربي محمد بلعباس القباج، الذي يعتبر أول أنطولوجيا مكتوبة بوعي متقدم وتصنيفي. فكاتبه يعترف بنفسه أن إصدار كتابه، كان وليد التأثر بالتطور الذي عرفه المشرق. وفي ذلك قوله: «ومنذ عهد قريب وصل إلى المغرب الأقصى صدى تلك النهضة الفكرية التي انبعثت في الشرق العربي وأحدثت انقلاباً في الأفكار والأساليب». وهو أول من فتح باب القول عن الشعر المغربي الحديث، وإن لم يخرج في ذلك عن المفهوم التقليدي للشعر، ولا عن التصنيف الذي جاءت به الشعرية العربية القديمة، عندما اعتمدت توزيع الشعراء إلى طبقات بحسب الانتماء إلى طريقة أو ما يغلب على الشاعر منها. فمحمد بلعباس القباج أسس لنا صورة واضحة عن الأدب المغربي، من خلال وعيه الأدبي الذي يعد امتداداً للخطاب المشرقي. وفي سنة 1934 صدر كتاب عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، الذي تزامن وجوده مع تحركات الكتلة الوطنية بالشمال والجنوب. (فالكتابان تأسيس مضيء للذاكرة). وفي هذا السياق كان كتاب محمد بلعباس القباج، وموسوعة عبد الله كنون وعياً بإحدى مقومات الحضور المغربي في العالم الحديث.

وقد جاء صدور كتاب بلعباس القباج على إثر صدور كتاب الأدب التونسي في القرن 14، الصادر سنة 1927، لصاحبه زين العابدين السنوسي، كحلْقة أولى في اهتمام المغاربيين بشعرهم، عكست وعياً ذاتياً بالممارسة الأدبية لتشكيل نموذج خاص بها، فأثار المؤلف، أوجه الاختلاف بين الممارستين: التقليدية والحديثة. فعاب عن التقليدية محاكاتَها للقديم، وعاب عن الحداثة تقليدَها للشعر الأوروبي، وفقدانَها لروح العربية والترنيمة الشعرية. واقتصر كتابه على الشعر دون النثر، وأورد مقطوعات شعرية، أغلبها، تصب في الموضوع الاجتماعي. وصدور كتاب زين العابدين السنوسي تُوّج لضرورة ملحّة أرادت أن تعرّف بالأدب التونسي، وتجاوز العوائق الفكرية والثقافية. وفي السنة نفسِها (1927)، ظهر أولّ مصنّف في الشعر الجزائري للمؤلف محمد الهادي الزاهري (1902 - 1974)، بعنوان شعراء الجزائر في الزمن الحاضر، جاء ليعلن، بدوره، أحقية انتمائه للثقافة العربية، «فقد ظل إلى حدود سنة 1967 الذخيرة الفريدة لهذا الشعر.«

يمكن اعتبار سنة 1936 شاهداً على صدور أول ديوان شعري مغربي: أحلام الفجر لعبد القادر حسن. وبعدها في 1937 نشر محمد بن محمد مكوار ديوان محمد بن محمد مكوار. وهي سنة جديدة في عالم النشر انتبه إليها عبد الله إبراهيم في تقديمه ديوان أحلام الفجر. لم يكن قبلها إلا مجموعتان اليمن الوافر لعبد الرحمن بن زيدان، الصادر عام 1923. والأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن العباس القباج المنشور بعد ذلك بخمس سنوات، والمجموعتان معاً، انتقائيتان لنماذج تنصب في أولهما على المديحين النبوي والسلطاني. ويدور ثانيهما حول تقديم منتخبات شعرية. إلا أنهما لا يزجيان إلا النصوص التي قيلت في العقد العشريني وما قبله.

وقد امتازت هذه الفترة المدروسة بميزتين مهمتين:

أولاهما: بداية التطور في لغة الشعر وأسلوبه وطريقة أدائه، بحيث أصبحت لغته قوية سليمة بالنسبة لثقافة شعراء هذه المرحلة .

وثانيتهما: انطلاق الشعر في آفاق جديدة، بحيث لم يقتصر على فنون القول التقليدية: المدح، والهجاء، والغزل، والإخوانيات، ولكنه انطلق مع اهتمامات النخبة بحالة الشعب، يسجل آلام الأمة منكودة الحظ، وينعي حالة التخلف الفكري والاجتماعي، ويوجه النقد الذاتي للأوضاع الاجتماعية والدينية والثقافية في المغرب.

أسماء من طراز علال الفاسي، ومحمد بن إبراهيم، ومحمد المختار السوسي، هي بالتأكيد أسماء الحركة الشعرية التقليدية في المغرب. وهي التي بلورت قصيدتها، ونشرتها الصحافة. كتبت هذه الأسماء، قصيدة، كانت ترغب في التخلص من ممارسة المدرسة المغربية ـ الأندلسية، باعتماد نموذج شعري مغاير. مهتدية بما حققته القصيدة التقليدية في مصر على الخصوص. إنه نموذج يدعو على لسان الجماعة لقيم تحديث لغوي (يصبو إلى الدفاع عن عربية حديثة)، واجتماعي (وفي مقدمته تعليم الفتاة)، وتحرري (أساسه رفض الاستعمار وتمجيد الرموز المغربية والعربية.(

إن وعيهم بالأوضاع الجديدة التي عرفها المغرب، جعلهم يفكّرون في الجديد الذي يناسب الوضع الجديد، لأن القصائد السائدة، لم تعد تناسب مستجدات زمنهم، ولم تعد تستجيب لما في دواخلهم من أحاسيس ومكنونات. ومن ثم جاء الوعي الشعري الجديد لهؤلاء الشعراء الشباب مقترناً بالوعي المشرقي، وبالوعي الوطني المرتبط بالوضع السياسي الداخلي للمجتمع المغربي.

من هنا شكلت القصيدة التقليدية المغربية بداية الحداثة الشعرية في المغرب، تعبيراً عن زمن التحولات، ومنطلقاً لتغير فكري يبحث عن هويته الضائعة بين الجهل والاستعمار.